

العرب والعريّة

حيث لا يتوقعان

أستاذ محمد جميل بركة
لبنان

القرن الرابع للميلاد ، والتدمريين (سوريا) سنة 106 ق م. والاباجرة في الرها سنة 132. وقد عاصر أشهر ملوكهم أبجر الخامس السيد المسيح ، والايطوريين في القرن الثاني ق م. وكانت عاصمتهم مجدل عنجر (لبنان) وقد استمر حكمهم حتى نهاية القرن الاول للميلاد .

وكانت للعرب دولة أخرى في حمص أشار إليها جرجي زيدان في كتابه « العرب قبل الاسلام » حيث قال : « ولما قدم بومبيوس على مصر في القرن الاول ق م. كانت حمص في حوزة دولة عربية » وقد أقرها على ما كانت عليه . والتنقيب الذي قام به الاب لامنس اليسوعي سنة 1900 في حمص كشف عن عدد من قبور أمراء هذه الدولة تعود الى القرن الثاني للميلاد . مما يشير الى طول مدة حكمها .

وأما في العهد الروماني ، فبالإضافة الى دولة حمص العربية ، فقد أقام التنوخيون إمارة أخرى في مشارف الشام خلفهم عليها زملاؤهم بنو سليم من قضاة بأسم الضجاعة ، بينما ملك عرب الصفا حوران وما يليها ، واستولى غيرهم على ديار بكر وديار ربيعة (تركيا) . وكانت هذه البلاد تحمل أسماء أخرى فقلبت عليها من بعد أسماء القبائل العربية التي سيطرت عليها .

ثم خلف هؤلاء واولئك في عهد البيزنطيين أمراء عرب آخرون ، وأشهرهم آل غسان في بلاد الشام ، وآل لخم في العراق . وفي الحروب المتصلة التي كانت تدور وقتئذ بين البيزنطيين وبين الفرس كان آل غسان أنصارا للروم بينما كان آل لخم أنصارا للساسانيين . وهذا ما أوحى الى الكونت سفورزا الايطالي بأن يقول في كتاب له عن العرب صدر سنة 1938 : « لو سألت الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية)

يتوهم سواد الناس أن العرب قبل الاسلام كانوا يقيمون في شبه جزيرتهم فحسب ، وان هؤلاء ما كادوا يعتنقون الاسلام حتى اكتسحوا المسالم لأول مرة ، وزودوه بحضارة زاهرة . والواقع أن وثبة العرب الاسلامية وان كانت أعظم وثبة لهم إلا أنها لم تكن الاولى من نوعها ، وأن شبه جزيرة العرب وان كانت مهد القحطانيين والعدنانيين إلا أنها لم تكن موطن العرب الوحيد .

فمنذ آلاف السنين حتى ظهور الاسلام كان العرب موجات صادرة عن مهدهم رافقتها وثبات وحضارات اندثرت قبل عهد الجاهلية وخلفت في بلاد الشام والعراق ومصر وغيرها بقايا كثيرة من العرب ومن لغتهم ، هذا فضلا عما كان لهم من فتوحات ومدنية يمنية .

فالتنقيبات الاثرية التي أجريت بفلسطين أكدت صحة ما قاله روبنسن في كتابه (تاريخ اسرائيل) وهو « ان العرب جاؤوا بلاد الشام موجات متتابعة منذ ثلاثة آلاف سنة من ولادة السيد المسيح » وكانوا في داخلها يعرفون بالعموريين ، وفي ساحلها بالكنعانيين .

وقد ورد ذكرهم باسمهم الصريح في رقيم أصدره شلمنصر الاشوري لمناسبة حملته على دمشق سنة 854 ق م . وكذلك في تاريخ الاسكندر المكدوني الكبير الذي كتبه لاريانوس حيث قال :

« ان الاسكندر ابان محاصرته لمدينة صور سنة 328 ق م رغب في الترفيه عن نفسه فتوغل في طلب الصيد ، ووجد نفسه بين قوم من العرب . »

هذا بالإضافة الى أن التوراة أتت كثيرا على ذكر العرب ، وأن التاريخ حافل بذكر دول عربية ذات شأن قبل المسيح ، كالانباط في بطرا (الاردن) قبيل

لعمت أنها كانت تسيطر على سوريا على اعتبار أنها
نظر عربي يتولاها أمراء العرب الذين كانوا وشعبهم
يولفون الكثرة بين السكان ، وكانت مصر عرضة أيضا
لموجات أخرى من جزيرة العرب : فقبل 2280 سنة من
الميلاد حكم فيها الهيكسوس المعروفون بالملوك الرعاة
مدة 600 عام تقريبا . ومنذ ذلك حفلت بالعنصر العربي
كما بيناه في كتابنا « العروبة والشعوبيات » .

وقد ظهر الاسلام في ذلك العهد فكان وجود العرب
في بلاد الشام وفي العراق ومصر في عداد الاسباب
التي أمنت له هناك ذلك الفوز الباهر - الفوز الذي
كان منطلقا لانتصاراته في البلاد الاخرى ، ولنشر لغة
القرآن . ثم دالت دولة العرب ، ولكن لغتهم ظلت
منتشرة في البلاد الواسعة التي انتشر فيها دينهم ،
وكذلك ظلت مفرداتها واصطلاحاتها موجودة في لغات
العالم الذي دان للتمدن العربي خلال ثلاثة أجيال تبتدىء
بالقرن الثامن الهجري ، وتنتهي في ختام القرن العاشر .

وهذه أمور وان خفيت على سواد الناس الا ان
الوانها لا تخفى على المثقفين ، ولكن الذي يعتبر في
حكم المجهول عند الكثرة ، الا ما ندر ، هو ذاك الذي
عثرنا عليه في ثنايا التاريخ من وجود شراذم من
العرب في بلاد كثيرة ، لا يتوقع أحد أن يسمع فيها
اللغة العربية ، أو أن يرى فيها العنصر العربي .

فياقوت الحموي المتوفى سنة 626 هـ وصاحب
كتاب «معجم البلدان» ذكر في سياق حديثه عن الصين
نقلا عن مخطوط وصفه بأنه عتيق ألفه أبو دلف مسعر
ابن المهلهل ما شاهده أبو دلف خلال رحلته الى بلاد
الترك والصين والهند ، فذكر انه عثر على قوم من
العرب في تلك الرحلة هم من بقايا الفاتحين . وقد
استهل كلامه في أسباب الرحلة بما يلي :

«ولما نبا بي وطني ، ووصل بي السير الى خراسان
ضاربا في الارض أبصرت ملكها والمرسوم بامارتها نصر
ابن أحمد الساماني عظيم الشأن ، كبير السلطان ،
يستصغر في جنبه أهل الطول ، وتخف عنده موازين
ذوى القدرة والحول ، ووجدت عنده رسل قالين بن
الشخير ملك الصين راغبين في مصاهرته ، طامعين في
مخاطبته ، يخطبون اليه ابنته ، فأبى ذلك واستنكر
لحظر الشريعة له . فلما أبى ذلك راضوه على أن يزوج
بعض ولده بابنة ملك الصين فأجاب الى ذلك ، فاعتنمت
قصد الصين معهم » .

ثم شرع يتحدث عن رحلته في بلاد الترك فيما

وراء النهر ، تلك البلاد التي اجتازها في طريقه الى
الصين واصفا أحوال كل من قبائلها وأديانهم وعاداتهم
ومحددا عدد الايام التي قضاه في اجتياز ربوعها .
فتحدث عن الخركاه ، فالطخاطخ ، فاليجا ، فالبحناك
فالجكل ، فالبفراج . وقال عن هؤلاء : «ولهم ملك عظيم
الشأن يذكر أنه علوى ، وأنه من ولد يحيى بن زيد .
وعنده مصحف مذهب على ظهره أبيات شعر رثى بها
زيد . وهم يعبدون ذلك المصحف . وزيد عندهم ملك
العرب ، وعلى بن أبي طالب ، رضى الله عنه ، عندهم
اله العرب . لا يملكون عليهم أحدا الا من ولد ذلك
العلوى البفراجي المشار اليه » .

ومضى بعد ذلك يتحدث عن انتقالهم ، هو وصحبه ،
من بلاد البفراج الى منازل قبائل التبت فالغز فالتغزغز
فالخرخيز فالخزيج هؤلاء .

ثم يوالى حديثه عن القبائل الاخرى التي زارها بعد
الخزليج المذكورين ابتداء من الخطلج التي يصف شدتها
في المحافظة على الاعراض الى أن يقول وهو بيت القصيد
في هذا المقال :

« ثم انتهينا الى موضع يقال له القليب . فيه بوادي
عرب ممن تغلف عن تبع لما غزا بلاد الصين .
لهم مصاييف ومشاتي في مياه ورمال . يتكلمون بالعربية
القديمة لا يعرفون غيرها ، ويكتبون بالحميرية ، ولا
يعرفون قلمنا . يعبدون الاصنام وملكهم من أهل
بيت منهم لا يخرجون الملك من أهل ذلك البيت . ولهم
أحكام وحظر الزنا والفسق . ولهم شراب جيد من
التمر . وملكهم يهادى ملك الصين . فسرنا فيهم شهرا
في خوف وتغريب . ثم انتهينا الى مقام الباب . وهو
بلد في الرمل تكون فيه حجة الملك . وهو ملك الصين .
ومنه يستأذن لمن يريد دخول بلد الصين من قبائل
الترك وغيرهم » .

وينهى صاحب الرحلة حديثه بالوصول الى مدينة
سندابل التي قال عنها بأنها قسبة الصين ، وهو يريد
بذلك العاصمة . وبعد أن وصفها قال :

« فدخلت على ملكهم فوجدته فائقا في فنه ، كاملا
في رأيه ، فخاطبه الرسل بما جاءوا به من تزويجه
ابنته من نوح بن نصر ، فأجابهم الى ذلك ، وأحسن
الى والى الرسل . وأقمنا في ضيافته حتى نجزت أمور
المرأة ، وتم ما جهزها به . ثم سلمها الى مائتي خادم
وثلاثمائة جارية من خواصن خدمه وجواريه . وحملت
الى خراسان : الى نوح بن نصر فتزوج بها » .

وقد عاد صاحب الرحلة الى خراسان مسع موكب العروس في طريق أخرى بين ما شاهده ، ولكننا أغفلنا ذكر العودة لانها لا تدخل في موضوع هذا المقال .

وأتت على هذه الرحلة بضعة قرون ، وأتى على قراءتي لها حين من الدهر كنت أتساءل فيه عما اذا كان العرب المذكورون المجاوزون للصين لا يزالون باقين على عروبتهم حتى اذا كانت سنة 1956 سمعت محاضرة القاها المستشرق الروسي تسترلى باللغة العربية في بيروت وذلك خلال شهر نيسان ، فاذا به يذكر خبرا آخر من هذا القبيل حينما قال :

« وفي آسيا الوسطى بلدة يسكنها ثلاثة عشر ألف نسمة لا يزالون يتكلمون اللغة العربية . ويرجع أنهم من أصل عربي . »

ثم قرأت في مجلة الانبياء السوفياتية في عددها الخامس الصادر في 1958/I/26 نبأ مماثلا هذا نصه : « ان مائة عائلة عربية تقطن حاضرة دجافغاري القديمة القريبة من مدينة بخارى في اوزبكستان . وان الوثائق تثبت أن هؤلاء العرب أقاموا هناك منذ أكثر من ألف سنة . »

ولقد علقت المجلة على هذا الخبر بقولها : « لقد أصبح هؤلاء العرب نواب في السوفيات الاعلى ولجمهورية اوزبكستان ، وأعضاء في مجالسها المحلية . » فهل كان العرب الحميريون الذين زارهم أبو دلف مسعر غير هؤلاء الذين نوه بهم الروس ؟ لا ندري .

وقد أخبرني الشاعر الشهير الاستاذ أحمد صافي النجفي أنه في سفره من الخليج العربي الى مدينة شيراز في جنوب ايران عثر في بواديه على قبائل عربية لا تزال تحافظ على لغتها وتقاليدها على الرغم من

عزلتها ، وحجب الى السفر الى تلك الديار لرؤيتها ، ولدراسة أحوالها .

وهناك فئة أخرى من الاخوان المجهولين غير الاسيويين الذين تحدثنا عنهم كانوا يعيشون حتى الجيل الماضي في أمريكا . ورد ذكرهم في كتاب « صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار » للشيخ محمد بيرم التونسي المتوفى سنة 1889 . وقد قال عنهم في سياق كلامه عن البرازيل :

« ويوجد فيها آلاف من المسلمين أصلهم من سودان افريقية ، ولكنهم لا يعلمون الا كليات الديانة على سبيل الاجمال . كما يستفاد ذلك من رحلة عبد الرحمن بن عبد الله البغدادى الذى كان اماما في بعض السفن المدرعة العثمانية ، وسافرت الى البصرة على طريق البحر المحيط الغربى (قبل فتح قناة السويس) على بوغاز (جبل طارق) ، وصادفتهم زوايع اضطرتهم ، عن غير قصد ، الى شطوط البرازيل . ولما خرجوا الى التفسح في البر أقبل عليهم أقوام مسلمون ، وطلبوا ابقاء الامام عندهم لتعليم الديانة . فبقى هناك مدة . وألف رحلته المختصرة المترجمة الى التركي المسماة «مسلية الغرب» وكان سفره سنة 1282 هجرية . ولا يبعد أن يكون في جميع امريكا أمم كثيرة من المسلمين لا يجدون من يهديهم . ولا حيل ولا قوة الا بالله . »

لقد طاب لنا ان نتحدث عن اخوان لنا كانوا يسكنون في بلاد لم تكن نتوقع أن يكون لنا فيها اخوان ، ولكن الذى يؤلمنا أن هؤلاء الذين عثرنا عليهم في طيات التاريخ ، والذين كنا نتساءل عن مصيرهم بحرارة قد خسروا في القارتين الأمريكيتين ، وربما خسروا أيضا غيرهم في آسيا وافريقيا ، وأما الباقون في تركستان فهم عرضة لخطر جسام لا تنسيهم لغتهم لغة القرآن فحسب ، بل قد تنسيهم القرآن نفسه .